

(٨)

فضيلة العلامة العرفاني الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره



تأويل سورة الماعون





جمعه ودققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



Interpretation of Al-Ma’un (Almsgiving) تأويل سورة الماعون | Fortress

(٨) موسوعة عم الجزء | Am’ma Encyclopedia ٨

Authored by:
The great humane eminent scholar
Mohammad Amin Sheikho
His soul has been sanctified by Al’lah
١٨٩٠-١٩٦٤

فضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

Checked and Introduced by
The Researcher and Thinker
Prof. A. K. John Alias Al-Dayrani

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Published by
Amin-sheikho.com

§§§§

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

محتويات الكتاب

مقدمة

مَن مِنَ المسلمين مَنْ لايعرف سورة الماعون!.

بالطبع لا أحد.. وإن وجد فنادر.

ولكن مَن مِنَ المسلمين يعلم ما انطوت عليه هذه الكلمات التامَّات من المعاني السامية، والمراد منها وما تهدف إليه من غايات رفيعة..

هذا وقد اتصف **(المكذِّب بالدِّين)** بصفتين:

١ـ أنه يدعُّ اليتيم.

٢ـ ولا يحض على طعام المسكين.

فهل كانت هاتان الصفتان أعظم من القتل والسرقة والزنا وغيرها من الكبائر والإجرام، أم أنَّ فقدان الرحمة والرأفة والحنان هي سُبل الغي منها يتحدَّر ذلك الإجرام الكامن في النفوس المقطوعة عن ينبوع كلِّ فضل ورحمة ومحبة سامية وحنان عن حضرة الله جلَّ كماله وعظمت رحمته وبالإيمان النجاة من كل نقيصة والفوز بمكارم الأخلاق والصفات الكاملة والتي مردودها سعادة الدارين الكبرى.

والسؤال الآن..

هل مجرد السهو بالصلاة هو مسبب الجرائم كلها، أم أن هناك معنىً أبلغ وأشمل!. أي أليس الكافر مكذِّباً أيضاً بالدين، بل هو صاحب الرذيلة والسفالة المعاند والمعارض للحق وأهله الدنيء المنحط فهو لا يصلِّي وبالتالي لا يسهو.. فهل هذا الكافر بريء من كل ذلك، إذ السورة لا تحذرنا منه!.

ما حقيقة كلمة **(الويل)** الواردة بالآية!.

وهل **(الويل)** وادٍ في جهنَّم ومنه نستعيذ؟. وما وقوده يا ترى!.

في هذه الصحف أنت ترى الشمس وقد سطعت بنور باهر على الكلمات فتفجَّرت عظمتها من عظمة الله رب العظمة بما لا يقبل الجدل ولا يأتيه إبلاس من بين يديها ولا من خلفها، واضحةً بيّنة، محذِّرة ميقظة، مبلِّغةً المراد الإلهي من هذه الكلمات التامَّات لمن أراد الحق وأعمل تفكيره بالسير الإنساني السامي لكشف الغاية، للإيجاد، للخلْق، مَنْ خشي الموت ومعادَه عليه فنظر بآيات صنع الله الكونية، عندها لن يُكذِّب بالدين ولن يدعَّ اليتيم، بل يحض على طعام المسكين، إذ يجعل تعالى في قلبه المودة والرحمة وتلك لأيّم الحق هي الإنسانية بأجلى معانيها وأولئك هم المفلحون الفائزون وحسن أولئك رفيقاً.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

تأويل سورة الماعون

بعد أن بيَّن الله تعالى لنا في سورة الكوثر "الجزء السابع" أن الصلاة هي السبب الوحيد الذي يكون به وصول الإنسان إلى الخير، وما أعدَّه له ربه منذ الأزل من الفضل. أراد سبحانه أن يبيِّن لنا في هذه السورة أنَّ ترْكَ الصلاة هو السبب الوحيد الذي يكون به شقاء الإنسان، ووقوعه في أحضان الهلاك والبلاء، ولذلك قال تعالى: **{أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}.**

وقد خرج الاستفهام هنا عن الغرض الأصلي الموضوع له، وهو طلب العلم بالشيء، وجاء لتقرير الأمر وبيان ثبوته، ويكون ما نفهمه من آية: **{أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}:** أي: انظر أيها الإنسان حال المكذِّب بالحق، وعاين ما يصدر عنه من الأعمال الخبيثة.

وحتى نستطيع أن نفهم كلمة **(الدِّين)** على حقيقتها.. نضرب المثال الآتي، فنقول:

لا بدَّ لكلِّ مصنع من المصانع حينما يُريد إخراج آلة إلى السوق من أن يُرفقها بنشرة من النشرات، ترى ماذا تتضمَّن هذه النشرة؟. إنها تتضمَّن طائفة من الوصايا والتعليمات وضعها صانع هذه الآلة العليم بما ينفعها ويضرُّها، الخبير بالأصول التي يجب أن يُطبِّقها المستفيد منها، فإذا ما طُبِّقت على الوجه الأكمل، كان ذلك سبباً في سير هذه الآلة سيراً حسناً لا خلل معه ولا اضطراب، ومن الطبيعي أن كل ذي خبرة وعلم يرتاح قلباً ويطمئن نفساً إلى هذه الوصايا والتعليمات، فإذا طبَّقها طبَّقها عن طيب نفسٍ ورضا، ولو أنك قُدِّر لك أن تطَّلع إلى ما انطوت نفسه عليه تجاه هذه التعليمات لوجدت خضوعاً وارتياحاً، بل لوجدت اطمئناناً بها وسكوناً، وأكثر من ذلك أنه كلما ازداد المرء علماً وخبرة بالآلة ودقائقها وأصول استعمالها ازداد تقديره لواضع هذه النشرة، وازداد استسلامه لتعليماته وحرصه على تطبيقها دون أدنى تقصير أو تهاون.

ولا أريد أن أطيل الشرح وأبالغ في وصف الحال النفسي لهذا المستفيد العالِمُ بالآلة، بل أقول موجزاً إنه يدين أي تخضع نفسه مستسلمة وتركن مطمئنة مرتاحة لهذه التعليمات، من بعد أن رأت خيرها وفائدتها وتحقَّقت من سعة علم واضعها، فإذا هي خاضعة له مشحونة بالإجلال والتقدير.

أما وقد وضَّح لنا هذا المثال طرفاً مما تُشير إليه كلمة **(الدِّين)**، نقول:

الدِّين: كلمة جامعة تجمع في طياتها ذلك النظام الذي وضعه خالق الإنسان لهذا الإنسان، إنها تعني تلك القواعد التي أمر الله تعالى الإنسان أن يُطبِّقها في هذه الحياة ليفوز بما أعدَّه له من السعادة والخيرات.

الدِّين: مجموعة أحكام وأوامر إلهية شرعها الله تعالى في كتابه وأنزلها على رسوله وأمره أن يبلِّغها لعباده، فإن هم ساروا عليها وطبَّقوها عاشوا في هذه الحياة الدنيا بأمان واطمئنان، وظفروا من بعدها بسعادة أبدية لا حدَّ لها ولا انتهاء.

وقد سُمِّيت تلك المجموعة من الأحكام والأوامر الإلهية ديناً، لأن النفس البشرية إذا هي آمنت بخالقها وعرفت ربَّها وتوثَّقت به صلتها فهنالك تطمئن إليها وتستسلم وتخضع وتدين.

وكيف لا تخضع وتدين وقد رأت ما فيها من السعادة وما اشتملت عليه من الخير؟. خير النفس والجسد، خير الفرد والمجتمع، لا المجتمع الصغير مجتمع الأسرة فحسب ولا مجتمع قوم أو أمة، بل مجتمع البشرية عامة وسعادة الخلق كافة.

وحيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له بربه أعظم صلة وأشد تقدير وإكبار، وحيث إنه صلى الله عليه وسلم بهذه الصلة العالية وبذلك القرب والزلفى من الله صارت له أوسع مشاهدة ورؤية لما في أوامر الله من السعادة والخيرات، لذا كان له من الميل لأوامر الله وكان لديه من الخضوع لها والاستسلام أن دانت نفسه لها ديناً ما دانه أحد مثله من

العالمين، ولذا خاطبه ربه بقوله الكريم، إذ قال تعالى: **{أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}.**

أي أرأيت الذي يكذِّب بما دانت نفسك إليه من أوامر وما خضعت مستسلمة له من أحكامي وشريعتي، أرأيت كيف أنك دِنْتَ إلى أوامري مُستسلماً سابحاً بفضلي على ما بيَّنت وأرشدت، مقدِّراً عنايتي بما هديت وشرَّعت، وكيف أن ذلك البعيد عني الكافر بنعمتي يكذِّب ولا يصدِّق، يُعارض ويُعاند، ولو أنه سلك الطريق التي أنت سلكت وآمن بي كما آمنت لدان لأوامري كما دنت ولخضع كما خضعت واستسلمت، لكن كفره وبعده حجبه وأعماه. قال تعالى: **[وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ]** (١).

نعم إنه الله تعالى يخاطب رسوله الكريم بهذا الخطاب، وما يريد بكلمة **(أرَءَيْتَ)** سؤالاً ولا استفهاماً، لكنما يريد تقريراً لقانون من القوانين وبعثاً للتفكير ودعوة إلى التأمُّل والتدقيق، وأخذاً بأيدي الناس كافَّة إلى المقايسة والمقارنة ثم الوصول إلى عقل حقيقة ثابتة وهي: أن الإيمان بالله تعالى يُنير لصاحبه سُبل السعادة ويهديه إلى رؤية ما في أوامر الخالق العظيم من صلاح ورشاد وخير، وهنالك يخضع ذلك الإنسان لتلك الأوامر الإلهية ويدين كما دان سيِّد المؤمنين ورسول رب العالمين.

والآن وبعد أن قرَّر تعالى هذه الحقيقة الثابتة في الأذهان بما أورده في الآية الكريمة الأولى من بيان، أراد تعالى أن يُعرِّفنا بأحوال من يكذِّب بالدين، وما انطوت عليه نفسه من وصف دنيء، إذ بتكذيبه بالحق أي بالدين انقطعت صلته عن الله، وبذلك الانقطاع أصبح فاقد الحنان.. محروماً من الرحمة وعاطفة الإحسان.. وهذا ما نفهمه من آية: **{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}.**

ثم أتبع تعالى ذلك بوصف آخر لذلك المعرض البعيد، فقال تعالى: **{وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}.**

ولكن لا تحسبنَّ ما وصف به تعالى حال المكذِّب من دعِّ اليتيم وصفاً بسيطاً يتناول خُلقاً من أخلاقه، إنه أسوأ وصف يُوصَف به إنسان، إنه وصف يُفيد أن صاحبه مجرَّد من كل صفة إنسانية عالية، إنه وصف لأشرِّ مخلوق على صورة إنسان، إنه وصف يعني أن المكذِّب بالدين امرؤ محروم من الرأفة والرحمة ومن حُرِم الرأفة والرحمة فقد حُرِم الخير كله.

اليتيم: من فقد أباه ولم يبلغ بعد مبلغ الرجال فإذا هو بحاجة إلى من يعطف عليه ويرعاه.

أما كلمة (**يدعُّ**) فمأخوذة من دعَّ، أي: دفع دفعاً عنيفاً وبجفوة، على أنه ليس المراد من دعِّ اليتيم دفعاً بيد أو إقصاء عن مكان، إنما المراد عدم المبالاة به والالتفات إليه التفاتة عطف وحنان.

فالذي يرى يتيماً منقطعاً، ولا يؤويه إن كان مشرَّداً، ولا يُسعفه إن كان يشكو ألماً ومرضاً، والذي يرى يتيماً ولا يُطعمه إن كان فقيراً معوزاً، ولا يكسوه إن كان عرياناً يرجف برداً، وبكلمة موجزة:

الذي يرى اليتيم بحاجة إلى أيَّة مساعدة فيقابله بجفوة أو بنَهْرةٍ في القول، أو الصدودُ عنه بالنفس، وعدم شموله بالرعاية والعطف، ولا يمد له يداً بمعونة ولا يجد له في قلبه نحوه عطفاً ورحمة، فذلك ممن ينطبق عليه الوصف الوارد في هذه الآية الكريمة، فإذا ما رأى من إنسان عطفاً على يتيم، وإن شئت فقل: إذا دعوته يوماً إلى الإحسان إلى يتيم قال لك بصدود وجفوة دعني منه فلست مكلَّفاً به أو دعه يموت فما لك وله وما تفيد من مساعدته، ذلك طرف مما نفهمه من كلمة: **{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ}.**

وأنت ترى من خلال ما قدَّمناه أن الذي يدعُّ اليتيم امرؤ فاقد الرحمة والحنان، ومن فقد الحنان والرحمة فاحذر منه على نفسك الحذر كله، إذ ليس بغريب على من حُرِمَ الرأفة والرحمة إذا أغرته نفسه بالمال أن يقتلك ويذهب بحياتك ويدع أطفالك أيتاماً من بعدك، دون أن تتحرك من

قلبه أية عاطفة لأنه لا يهمُّه إلا ما يضمن مصلحته، وليس بمستبعد على من حُرِم الرأفة والرحمة أن يعتدي على الأعراض فيفجع المرأة بأعز ما تملك، حتى إذا أشبع شهوته منها تركها وشأنها ورماها في أحضان الفاحشة والشقاء، وليس بغريب ممن حُرِم الرأفة والرحمة أن يُلقي ببناته وبنيه في المفاسد والمهالك، تخلُّصاً من نفقتهم أو طمعاً في أن يجلبوا له المال.

وخلاصة القول: أن المكذِّب بالدين بتكذيبه انقطعت صلته عن الله، وبذلك الانقطاع أصبح فاقد الحنان، محروماً من الرحمة وعاطفة الإحسان.

وإن شئت فقل: ليس بالغريب ممن يدعُّ اليتيم أن يقترف كل موبقة وفعل مُشين، كما أنه ليس بغريب منه ألاَّ يحضّ على طعام المسكين، ولذا أتبع تعالى الآيتين بعضهما ببعض، إذ قال تعالى: **{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}.**

وهكذا فدعُّ اليتيم كاشف من الكواشف التي تُظهر حقيقة هذا الإنسان المحروم من العطف والحنان، وصفة تُنبِّئ أن صاحبها هو الإنسان المؤذي المخيف، وهو الذي يجب أن تحذره أكثر مما تحذر الكاسر من الوحوش والضاري من الحيوان، فهو الوحش المختبئ في جلد إنسان وهو أشر من كل مخلوق وأخطر من كل حيوان.

وإن شئت تفصيلاً لكلمة: **{وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}**، نقول:

تأتي كلمة **(حضّ)** بمعنى: حثَّ وحرَّض. وكما أن التكذيب بالدين يجعل الإنسان محروماً من الرحمة، فاقد العواطف الإنسانية النبيلة، فهو أيضاً يجعلهُ خسيسَ النفس، متَّصفاً بالشح والبخل، فهو لا يساعد المسكين ولا دافع يدفعه إلى الإحسان إليه.

والمسكين: هو العاجز، أقعدته علَّة من العلل عن عمله، فأضحى لا يقوى على كسب رزقه والقيام بأود عياله وأسرته.

فالمريض المدنف والأعمى والمقعد والذي أصابه العجز بسبب شيخوخة وتقدُّم في السن، وإن شئت فقل كل امرئ لازمته علَّة من العلل سبَّبت له عجزاً عن كسب الرزق تشمله كلمة **(مسكين)**، وهو أيضاً قريب في الوصف من اليتيم من حيث ضرورة مساعدته والعطف عليه.

ومن المؤسف أن من صفات المكذِّب بالدين أنه لا يرحم يتيماً ولا يعطف على مسكين.

ولعلك تقول: ما الذي جعل هذا المكذِّب بالدين امرأً بهذا الانحطاط وهذا الوصف المزري الدنيء؟.

وفي الجواب عن هذا نقول:

لقد بيَّن لك تعالى السبب والعلَّة بقوله الكريم، إذ قال تعالى: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}.**

وتفصيلاً لمعنى هذه الآية نقول:

الويل: هو حلول الشقاء والهلاك، تقول: ويلٌ لك من الأسد إذا وقعت بين يديه، وويلٌ لك من هذا الملك إذا غضب عليك، وويلٌ لك من النار إذا وقعت بها، وويلٌ لك من القبر ووحشته إذا أنت وُضِعت فيه ولم تكن لك أعمال حسنة تسترك وترضيك، وويلٌ لك من خزي يوم القيامة إذا نُودي بك للحساب وكانت أعمالك منحطة وجميع الخلائق يومئذٍ ينظرون إليك، وويلٌ لك من عذاب النار وحريقها وهي تنضج الجلود وتصهر الأمعاء، وويلٌ... وويلٌ...، وويلٌ كما نفهم معناه الشقاء العظيم والألم الكبير نفسياً كان أم جسدياً، مادّياً كان أو معنوياً. وهي مشتقة لغوياً من كلمتين، كلمة وي: أي أتعجَّب، وولَّى: أي كم ولَّى عنه من الخير الكبير والذي بخسارته يحل بساحته الهلاك والشقاء.

أما كلمة **(المصلِّين):** فهي جمع مُصلِّ، والمصلِّ بحسب الاشتقاق اللغوي اسم فاعل مأخوذة من الصلاة، وهي: الصلة والارتباط النفسي، تقول: لك

يا رب صلاتي، أي: لا صلة لنفسي إلاَّ بك ولا ارتباط لها إلا بجنابك العالي الرفيع.

وهكذا فالمصلِّي هو كلّ مخلوق له صلة نفسية بخالقه.

على أن هذه الكلمة هنا لا تعني بالمصلِّي من يؤدِّي أشكال الصلاة بمعناها الاصطلاحي، وأعمالها من ركوع وسجود وقيام وقعود وقراءة، بل إنما تعني ذلك الإرتباط وتلك الصلة بين المخلوق وخالقه، إنها صلة إمداد وتربية، إنها صلة ينبني عليها قيام الوجود والحياة، إنها تعني ذلك الاستمداد الدائم من الله تعالى الذي كل من في السموات والأرض مفتقر له ومحتاج إليه.

وزيادة في تفصيل هذا المعنى نقول:

ما من مخلوق في هذا الكون إلاَّ وهو قانت لله يستمد منه تعالى بلا انقطاع الوجود والقيام والحياة.

كل ما في الكون قائم بنوره تعالى، سائر بأمره، مفتقر إلى دوام تجلِّيه تعالى وإمداده.

فالشمس تستمد منه تعالى توقُّدها وحرارتها، وعلى إمداده سبحانه يتوقَّف بقاؤها واشتعالها، وبه ضياؤها ومنه نورها ولو أن إمداده تعالى انقطع عن الشمس أقل من طرفة عين، لانطفأت شعلتها بل لانمحت وزالت ولم يبق لها أثر ووجود، فهي أبداً مفتقرة إلى الله وهي دوماً على صلة به، وهي دوماً في صلاة، وكذلك النجوم والكواكب والسماء بما فيها، والأرض وما عليها، وما من شيء مهما يكن صغيراً دقيقاً حتى الذرَّة التي لا تُدرك العين لها وجوداً، أقول:

ما من شيء إلاَّ وله صلة وصلاة وسبح وتسبيح، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: **[سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..]** (٢).

وقوله تعالى مشيراً إلى دوام هذا التسبيح: **[يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]**[٣].

هذا ولقائل أن يقول: إنك في الكلام عن هذه الصلاة والصلة أوردت القول بصورة لم تتميَّز بها الحقيقة واضحة جليَّة، فقد كنت تارة تقول بأن كل ما في الكون قانت لله دائميُّ الاستمداد منه، وأن كل ما في الوجود له سبح لله وتسبيح وصلاة، وتارة تقول بأن الإمداد الإلهي دائم على هذه المخلوقات فكل ما في الكون سائر بأمره، ولو أن إمداده تعالى انقطع عن المخلوق أقل من طرفة عين لزال هذا المخلوق ولم يبق له أثر أو وجود فأي القولين هو الأصوب، وأيُّهما مُطابق للحقيقة؟.

هل المخلوقات هي التي تستمد من خالقها استمداداً دائمياً، وتُسبِّح قانتة مستديمة الصلة والصلاة بخالقها، أم أنه تعالى هو الذي يغمر الموجودات بنوره ويمدُّها بتجلِّيه وإمداده إمداداً متواصلاً؟.

وفي الجواب على هذا نقول:

كِلاَ القولين صحيح وكِلاهما مطابق للحقيقة كل المطابقة، فالمخلوق دائمي الاستمداد والقنوت لا يستطيع أي انقطاع أو انفكاك، والخالق جلَّ جلاله دائمي الإمداد لهذا الكون يغمره بنوره وتجلِّيه على الدوام، وإذا أردت أن تتبيَّن هذه الحقيقة بصورة جليَّة ووجه معقول فانظر إلى ما سنورده لك من مثال:

تصوَّر سراجاً وهَّاجاً تُوقد شعلته بزيت الزيتون وقد سرى الزيت في كل ذرَّة من ذرَّات الفتيل، متخلِّلاً كل ذرَّة من ذرَّاته حتى يمد الشعلة بالبقاء والحياة، هل الفتيل هو الذي يستقي الزيت ويستمدُّه فإذا الشعلة في بقائها ودوام حياتها مفتقرة دوماً إلى هذا الاستمداد؟. أم الزيت هو الذي يسقي ويشعل ويبقي شعلة النور في توهج واستمرار؟.

الحقيقة كل الحقيقة أن الأمر ذو وجهين اثنين:

فالكون تُمثِّله شعلة المصباح، استمداده من الله تعالى دائمي، واستقاؤه من ذلك التجلي الإلهي متواصل، فهو في تعطُّش وشرب مستمر شرباً يضمن له بقاء الوجود والقيام والحياة، والإمداد الإلهي يُمثِّله الزيت أبداً مستمر والسقيا متواصلة.

والخالق جلَّ جلاله يغمر بتجلِّيه العالي وإمداده المتتالي ما في الكون، كما تغمر الشمس ما على الأرض من موجودات، وللكون كله، وللكون بجميع ما فيه صلاة لله، أي: دوام صلة به تعالى ودوام استقاء، ولله سبحانه دوام إمداد ودوام صلاة على ما في الكون باستمرار وبلا انقطاع.

فما من إنسان أو حيوان، وما من جرثوم ونبات، وما من شيء من الأشياء إلاَّ وله إمداد من الله تعالى على حسب ما يناسبه ويتطلَّبه حاله، وإن شئت فقل: على حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية مما فيه الخير والصلاح لهذه المخلوقات.

أقول: هذا الشرح الذي شرحناه وبيَّناه، إنما يجعلنا ندرك طرفاً من قوله تعالى: **[وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ]**(٤) .

[وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ](٥).

[يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ](٦) .

أي: إنك ساعٍ بنفسك وجسدك وروحك لا بل بكل ذرَّة من ذرَّاتك إلى هذه الصلة بخالقك والاستمداد منه، فإذا أنت على صلة بهذا الإمداد الذي به تربيتك وبقاؤك وإذا أنت دوماً في صلاة.

ولعلك تقول: إذا كان الأمر كما ذكرت، وإذا كان الكون كله على صلة بهذا الإمداد، والكون كله في صلاة فما الفرق بين المؤمن والكافر، وما هو وجه الاختلاف بين ذوي النفوس المقبلة وأهل الإعراض عن الله؟.

وفي الجواب عن هذا نقول:

تصوَّر رجلين اجتمعا في يومٍ من أيام الشتاء في البرد الشديد تحت أشعة الشمس، وأن الشمس قد لفَّت الرجلين بأشعتها وغمرتهما بنورها، وسرت إشعاعاتها وحرارتها في جسميهما، وكان الأول منصرفاً بعقله إلى ما يأتيه من الشمس من دفءٍ وإشعاع يشعر معه بالحياة المنعشة تسري في جسمه وتنفذ إلى كل ذرَّة من ذرَّاته، شعوراً يجعله يتمتَّع ويقدِّر ما في الشمس من خير وما فيها من فائدة وحياة، "كما يبدأ باستغلال الطاقة الشمسية لأغراض صحية ومنافع كسبية بما يعود عليه وعلى الناس بالنفع العميم". وكان الآخر غافلاً ساهياً لا يشعر بشيء من خيراتها وفائدتها فهي تغمره بنورها وتمدُّه بحرارتها وهو لا يدري شيئاً من ذلك أصلاً "ولا يستفيد من الطاقة الحرارية الشمسية وفوائدها الإبداعية". أفتظن والحالة هذه أن الثاني أقل من الأول استمتاعاً بالشمس وأقل استفادة من خيراتها لجسمه!.

لا ريب أنهما في الاستفادة الجسدية منها سيَّان لكن الفرق بينهما إنما هو في الشعور وعدم الشعور، في الإدراك وعدم الإدراك، في الوعي وعدم الوعي فهذا مُدرِك عاقل واعٍ مفيد منها، وذاك ساهٍ غافل.

وإليك موجزاً عن قوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}:**

جاء التعبير هنا عن المصلِّين بصيغة الجمع بياناً لكون ذلك يتناول سائر الخلق، فالخلق جميعاً قائمون بإمداد الله المتواصل، وهذا ما تُعبِّر عنه وتفيده كلمة **(المصلِّين)**، فهم أبداً على اتصال دائم بربِّهم، سواء شعروا بذلك، أم لم يشعروا، إذ لا قيام ولاحياة لهم إلاَّ باستدامة صلاتهم به تعالى، سواءٌ في ذلك أجسادهم ونفوسهم، قال تعالى: **[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ..]**[٧] .

ومن هذا يتبيَّن لنا أنه لا فرق بين مخلوق ومخلوق، ولا بين كافر ومؤمن في هذه الصلة، ولكن الاختلاف والتباين إنما يكون في الشعور بهذه الصلة وتذوُّقها ومشاهدتها، أو السهو عنها.

فالمؤمن يمتاز عن الكافر بكونه يشعر بصلته بربه ويتذوقها ويشاهد خيراتها بنور ربّه، والكافر مع وجود الصلة واستمرارها من طرف ربّه عليه تراه من طرفِهِ غافلاً وعنها ساهياً.

ومثل الكافر في سهوه عن ربِّه، كمثل الإنسان مع الهواء يستنشقه ولا ينفكُّ عن الاستفادة منه، لكنك تراه ساهياً مشغولاً بمشاغل الحياة، فإذا انتبه الإنسان لهذه الصلة وشعر بها، فقد فاز وصار من أهل الخير لأن نفسه تتحول وجهتها لله فيطلب دوام السقيا ويرفل بالخيرات دنياه وآخرته. أما إذا سَهَى عنها انحطَّ وباء بالخسران هؤلاء: **{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}.**

ولكن ماذا يفيدنا هذا الشعور بالصلاة؟.

أقول: النفس كالمرآة الصافية حيثما اتجهت انتقشت آثار الشيء المتجهة إليه بها، فشخوص النفس ببصيرتها إلى الله يُريها كماله، وهناك تعشقه وتحبه، إذ النفس مفطورة على حبِّ الكمال. وبعشقها لله ودوام نظرها إليه ينطبع فيها ذلك الكمال الإلهي، وتصطبغ فيه، فتنال منه على حسب إقبالها، وتزداد فيه كلما ازداد حبُّها، وبهذا الحال تغدو فاضلة، ذات سموّ وخُلُق إنساني كريم. **[.. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..]**(٨).

أما إذا هي أعرضت فقد حُرِمَت من تلك الصفات العالية، ولذا تصبح سيِّئة العمل، خبيثة الفعل، تتظاهر بالخير وليس فيها ذرَّة خير.

هذا وإذا كان قيام الوجود ودوام استمداد الحياة من الله تعالى تشترك فيه الخلائق كلها، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، بين مقبل قانت، وبين مُعرض مُدبر، فليس معنى ذلك أن المؤمن والكافر سيَّان في جميع

أحوالهما، فالكافرون والمؤمنون ليسوا سواء في عطفهم على الخلق ورحمتهم بهم.

والكافرون والمؤمنون ليسوا سواء في مروءتهم ووفائهم، كما أنهم ليسوا سواء في بطولتهم وشجاعتهم.

الكافرون والمؤمنون ليسوا سواء في جودهم وسخائهم، وليسوا سواء في نبلهم وشرف نفوسهم.

والكافرون والمؤمنون ليسوا سواء في أيِّ حال من أحوالهم، ولا أي خُلُقٍ من أخلاقهم.

فللكافر دناءته وانحطاطه، وللمؤمن شرفه وسموَّه، وللكافر لؤمه ونكرانه الجميل، وللمؤمن كرمه واعترافه بفضل من أحسن إليه، وللكافر الرذيلة والسفالة صاحب وقرين، وللمؤمن الفضيلة والخُلُق الكريم، وللكافر معاندته للحق وأهله، وللمؤمن تأييد الحق ونصرته والرضوخ إليه.

وهكذا فالبون شاسع والفرق عظيم، والسبب في ذلك كله:

أن المؤمن برؤيته أن الله تعالى قريب منه وشاهد عليه، تراه يسير ضمن أوامر الله ولا يستطيع أن يخرج عن طاعته تعالى في شيء، وبطاعته لخالقه وإذعانه لأوامر ربِّه يُضحي في حال يرى الله تعالى راضياً عنه ويجد نفسه لديه من المقرَّبين، وهنالك وبهذه الرؤية يغدو لنفسه إقبال على الله تعالى ووجهة إليه، وفي مثل هذا الحال تفتح النفس سِقاءَها وإناءها فتستوعي وتستقي من الكمال الإلهي، والكمال ينصبُّ فيها حيناً بعد حين وآناً بعد آن، انصباباً متتالياً متناسباً مع شدة طاقة تلك الوجهة.

إنه ينصبُّ في النفس بهذه الوجهة إلى الخالق جلَّ جلاله الرحمة والرأفة، والعطف واللطف، والكرم والجود، والبطولة والشجاعة ودماثة الخُلق، ولطف المعشر، والحلم والحكمة والوفاء والصدق، والمروءة والأمانة ووفاء العهد.. إلى غير ذلك من الأخلاق التي لو أنك صببت منها صبّاً

متواصلاً بلا توقُّف ولا انقطاع ما شئت على تواصل الأزمان والأوقات، لوسِعَت النفس من ذلك الشيء الكثير.

وليس شربها المتتالي من الكمال بموقف لها عند حد، فهي لا تمل الدهر وهي لا تشبع أبد الآباد، بل هي في ظمأ دائم وإلى شوق من مزيد.

أما الكافر فبعدم سلوكه طريق الإيمان، وإن شئت فقل بعدم تفكيره في بدايته ونهايته، وعدم توصُّله إلى معرفة خالقه ومربِّيه فقد ظلَّت نفسه في جهل وجهالة ومالت بوجهها إلى الدنيا وما فيها من شهوات دنيئة وبذلك انفتح وعاء النفس وسقاؤها إلى الدناءة والانحطاط، لا إلى النور والحياة، وجعل ينصب فيها ممن ارتبطت بحبه، اللؤم والقسوة، والعنف والجبن، والبخل والظلم والجهل، والخيانة والكذب، ونقض العهد، والإخلاف بالوعد، إلى غير ذلك من الأخلاق الدنيئة الذميمة التي أضحت النفس لها بمثابة الوعاء والسقاء: **[قُل كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ..]**[٩] .

وهكذا فالنفس البشرية إذا هي أقبلت على خالقها امتلأ وعاؤها وسقاؤها كمالاً وفضيلة، وأخلاقاً كريمة، وإن هي أعرضت ملتفتة إلى دنياها امتلأ وعاؤها وسقاؤها رذيلة ودناءة وأخلاقاً منحطة، ولكل وجهة هو مولِّيها وإنما تصطبغ النفس اصطباغاً بما أوعته منها، وقد ورد في الحديث النبوي: «**إنَّ لله تعالى آنيةً من أهلِ الأرضِ، وآنِيَةُ ربِّكمْ قُلُوبُ عِبَادهِ الصالحينَ وأحبُّها إليهِ ألينُها وَأرَقُّها**»[١٠]. وبرواية أخرى «**أنقاها وأصفاها وأوعاها**».

والحديث يريد بذلك: أنقاها من الذنوب، وأصفاها من التعلُّق بغير الله، وأوعاها لما يتوارد عليها من الكمال.

يتلخَّص معنا مما سبق أن الأنفس جميعها قائم وجودها بإمداد الله تعالى وهي أبداً مستديمة الصلة به، وهي جميعها في الأصل أشبه بالوعاء أو الإناء الخالي من أي شيء من الأشياء، لكن الأنفس التي سارت في طريق الإيمان وأقبلت بوجهها على خالقها امتلأت فضيلة ونُبلاً وكمالاً،

والأنفس التي تنكَّبت الطريق ومالَتْ بوجهها إلى الدنيا امتلأت رذيلة ودناءة وانحطاطاً.

هذا، وما الفرق بين الرجلين المؤمن والكافر في استمدادهما من الله تعالى الحياة، وعدم تماثلهما في استقاء الكمال منه إلاَّ كمثل رجلين يشربان الماء معاً من نبع صافٍ جميل، لكن أحدهما أعمى والآخر بصير، فهما في الشرب سيَّان لكن الأول لا يرى النبع في صفائه ولا يشعر بشيء من جماله وروعة الطبيعة حوله جلَّ طابعها، شاهدة على ما أبدعته يد القدرة الإلهية من آيات ناطقة بجمال وعظمة القدير، مما يسلب الألباب من جمال الطبيعة الخلاَّب وسحرها الأخَّاذ المستقى من منبع تجلِّيه تعالى بالجمال والروعة والجلال، وهو لا ينال من النبع إلاَّ ريّاً ولا يسري إلى نفسه من ذلك الجمال والصفاء شيء.

والآخر يشرب ويرتوي وإلى جانب ذلك يملأ نفسه بما يراه من صفاء وروعة وجمال حيناً بعد حين، وآناً بعد آن، وما يستوي الأعمى والبصير.

تلك مقارنة بين المؤمنين والمعرضين الذين هم عن صلاتهم ساهون، وذلك هو مثل يوضِّح لنا الحقيقة بعض التوضيح، وإن كانت الحقيقة أعظم من أن تُمثَّل بمثال.

هذا وقد أراد الله تعالى أن يختم لنا هذه السورة الكريمة ببعض ما يصدر عن أهل الكفر والإعراض، وإن شئت فقل عن المصلِّين الذين هم عن صلاتهم ساهون من سيِّء الأعمال، فقال تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}.**

والواقع أن الإنسان كما ذكرنا من قبل إذا هو لم يسلك طريق الإيمان فلم يتعرَّف إلى خالقه ومربِّيه، ولم تشاهد نفسه ذلك الإمداد الإلهي المتواصل المتوارد عليه، وإن شئت فقل: إذا هو لم يصل إلى ذلك الشعور العالي بتلك الصلة بالله التي يجب أن يشعر بها كل إنسان، ولم يحصل له الذوق،

أو الشهود القلبي.. تظل نفسه متلبِّسة بما هي متلبِّسة به من شهوات خبيثة وانحطاط، وهو لا يستطيع أن يتخلَّص مما عَلِق بنفسه من دناءات، حتى أنه لو سمع بكلِّ ما تتلو عليه من آيات، وما تريد أن تعظه به من عبر وعظات، إنه لا يستطيع عن المعاصي انفكاكاً.. وليس يجد لنفسه منها خلاصاً.

إنه ليسمع ما حلَّ بغيره من أهل الفسق والإعراض، وما سيلقونه غداً من سوء العذاب فيقلق نفساً ويضطرب ثم لا يجد لنفسه من ذلك مناصاً، ولذا تراه يُرائي ويُخادع ويموِّه على نفسه الحقائق، ويُلبس عليها ما يُلبس من الأماني الكاذبة والمطامع الخادعة، وتصبح نفسه بإعراضها محرومة من الصفات العالية وعملها سيِّئاً وفعلها خبيثاً تتظاهر بالخير، فإن فعلت الخير فعلته رياءً كما وصف تعالى حالها: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}.**

وهكذا فعدم الإيمان الحقيقي بالله، وعدم الشعور بتلك الصلة بالله، ولو أنه اقترن بالإقرار باللسان يُبقي الإنسان في انحطاط ودناءة، ويجعله في اضطراب وحيرة، فإذا ما سمع بالجنة ونعيمها، وما سيلقاه المرء من السعادة فيها طمع في أن يكون من أهلها، وظن أنه سيفوز بنعيمها، وإذا ما حذَّرته من الشهوات الدنيئة، وبيَّنت له مغبَّة الوقوع فيها وما سيلقاه أهل الفسق والعصيان من أليم العذاب، أشاح بوجهه عنك وولَّى منصرفاً، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التي تصف أحوال أهل النفاق في قوله تعالى: **[يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]**(١١) .

ذلك كله إنما نفهمه من كلمة: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}.**

إنها تبيِّن لنا طرفاً من أحوال أهل النفاق الذين وقع الحق منهم موقعاً بعث في أنفسهم خوفاً من سوء المصير، غير أنهم لم يسلكوا طريق الإيمان، حيث الطهارة والخلاص مما علق في نفوسهم من شهوات وأدران.

وهكذا فالمنافقون أناس لهم مما يسمعونه من الحق خوف من مغبَّة أعمالهم السيِّئة، ولهم إلى شهواتهم الدنيئة ميل وهوىً مُتَّبع، ولذا تراهم يُضيفون إلى ما يُقارفون من شهوات دنيئة وما يرتكبون من معاصٍ ومخالفات، صوماً وصلاة، وحجاً وزكاة، وقراءة قرآن، وفعلاً معروفاً، يظنون أنهم يخدعون الله تعالى بما يؤدُّونه من عبادات ويحسبون أن في طاعتهم هذه خلاصاً لهم من نتائج ما يقارفون من سيِّئات، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: **[وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ]**(١٢) .

وذلك أيضاً ما أشارت إليه الآية الكريمة التي نحن بصددها في قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}.**

فهم يتظاهرون بالخير والصلاح ويحسبون أنهم بعملهم هذا يخدعون الله والمؤمنين ويخلصون من العذاب.

وأخيراً أشار تعالى إلى صفة أخرى من صفات المنافقين فقال تعالى: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}.**

والماعون: هو المعونة ومدُّ يد العون لذوي الحاجة، ومنع الماعون يكون بما يظهر من الإنسان من إساءة لمن أحسن إليه وساعده، فإذا ما أقرضت امرؤاً مبلغاً من مال وضرب لك أجلاً للتأدية، فماطل وسوَّف ولم يؤدِّ لك حقَّك بيسر وسهولة، ولم يُحسن الأداء حتى تألَّمت منه وعزمت على ألاَّ تُقرض أحداً ولا تمدّ لإنسان يداً بمعونة، فقد انطبق عليه الوصف وكان ممَّن يمنعون الماعون.

وإذا أعار امرؤ آخر متاعاً وما ردَّه له إلاَّ من بعد صعوبة ومشقَّة أو إيذاء، وكان من جرَّاء ذلك أن صمَّمَ المعير على عدم إعارة أحد شيئاً، فقد انطبق الوصف أيضاً على هذا المستعير وكان ممَّن يمنعون الماعون.

ونوجز فنقول: كل امرئ يؤذي محسناً أحسن إليه وقابل إحسانه بالإساءة وبذا يجعل المحسن حذراً يخشى الناس أن يقابلوه بمثل ما قابله به ذلك المسيء. ويكون بإيذائه إياه سبباً في عزم هذا المحسن على عدم معونة الآخرين، إنما ينطبق عليه ما أورده تعالى بكلمة: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}**، وهو معدود في المنافقين الذين وصفتهم الآية الكريمة التي نحن بصددها.

وهكذا فالمصلُّون الذين هم عن صلاتهم ساهون أحد رجلين:

كافر: يكذِّب بيوم الدين مُعلناً تكذيبه للحق ومعارضته للمؤمنين.

ومنافق: أقرَّ إقراراً بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، إذ لم يبنِ إيمانه على عقل وتفكير، فنازعت إقراره واعتقاده الشهوات الدنيئة، ولم يستطع أن يستقيم استقامة المؤمنين.

وقد وضَّحت هذه السورة الكريمة طرفاً من أحوال هذين الرجلين وجمعت بينهما آية: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ}.**

فلو أن الأول والثاني سلكا طريق الإيمان كما شرعها الله تعالى وبيَّنها لهذا الإنسان، لخلص الأول من كفره، ولنجا الثاني من نفاقه وطهر قلبه من أدرانه وشهواته ولدخل الناس في السِّلم كافة وكانوا في الإيمان أمة واحدة.

وأنت ترى من خلال هذه السورة الكريمة رحمة الله تعالى بعباده، إذ يُبيِّن لهم ما ينجم عن عدم سلوك طريق الإيمان في هذه النفس البشرية من دناءة وانحطاط، وما يتبع ذلك من الويل والشقاء لعل هذا الإنسان يحذر على نفسه ويخاف سوء المصير، ويسمو بها إلى ذلك المقام العالي الرفيع. قال تعالى: **[وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ]**(١٣).

ومجمل القول: أن المكذِّب بالدين وإن شئت فقل: الساهي عن صلاته الذي لا يُقبل على ربِّه بنفسه إن هو إلاَّ امرؤ محروم من العواطف الإنسانية، شحيحٌ خسيس النفس، وهو إلى جانب ذلك رجل مراءٍ منَّاعٌ للخير.

والحمد لله تعالى فهو في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه..

---

(١) سورة فاطر: الآية (١٩-٢١).

(٢) سورة الصف: الآية (١).

(٣) سورة التغابن: الآية (١).

(٤) سورة النحل: الآية (٤٩).

(٥) سورة الروم: الآية (٢٦).

(٦) سورة الانشقاق: الآية (٦).

(٧) سورة الحج: الآية (١٨).

(٨) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٩) سورة الإسراء: الآية: (٨٤).

(١٠) الجامع الصغير /٢٣٧٥/ (طب).

(١١) سورة البقرة: الآية (٢٠).

(١٢) سورة البقرة: الآية (٨-١٠).

(١٣) سورة العنكبوت: الآية (٦).

تأويل سورة الماعون

المكذِّب بالدين: امرؤ مُعرِضٌ عن الخالق منبع الكمالات ومنار ينابيع الهدايات وموئل الخيرات، من أشاح عنه تعالى فقد أشاح عن الجنَّات، وأضاع المكرمات، و بالأمراض النفسية باء فتحوَّل لدنياه الدنيَّة إثر حرمانه لنفسه من الرحمة والإنسانية، وبذا فقد فتح وعاء نفسه وسقاءها إلى الدناءة والانحطاط، فانصب فيها الجفاء والقسوة وعدم الوفاء، وكان البخل والجبن إلفه وأليفه، والكذب والخيانة حليفه، وكان نبراساً للدنيء من الأخلاق .

ترى وأرى في تضاعيف هذا الكتاب القيِّم الثمين أن صفتاه من دعِّ اليتيم ، وعدم الحضِّ على طعام المسكين ، كاشف من الكواشف التي تظهر حقيقة هذا الإنسان المحروم من كل عطف وحنان ، فاحذره أكثر مما تحذر الكاسر من الوحوش والضاري من الحيوان ، فهو الوحش المرعب المختبئ في جلد إنسان ، بل هو أشرُّ من كل مخلوق وأخطر من كل حيوان ، وسبب ذلك كله عدم سلوكه عملياً طريق الإيمان .

فاحذر على نفسك وعليها أشفق من الحرمان وخَفْ سوء المصير واسْمُ بالإيمان الحق إلى المقام العالي الرفيع مقام الأنس بالله وبك تأنس الخلائق غبطةً أبديَّة في الجنان .

(وَمَن جَاهَد فإنَّما يُجاهِدُ لِنفْسِهِ إنَّ اللهَ لَغَنيٌّ عنِ العالَمِينَ).





السعر : ١٥ ل.س